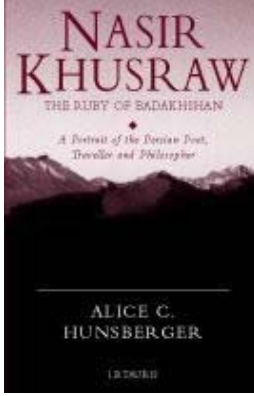




معهد الدراسات الإسلامية



ISBN 1 85043 919 2 (HB)
1 85403 926 5 (PB)

ناصر خسرو، ياقوتة بدخشان: لوحة شاعر ورحالة وفيلسوف فارسي للكاتبة أليس سي. هانزبرجر

لندن ونيويورك: إ. ب. تورس بالتعاون مع معهد الدراسات الإسلامية، 2000.
أعيد إصداره 2003. عدد الصفحات 292.
ترجمه للفارسية ف. بدري. طهران: فرزنان، 2001.
ترجمه للطاجيكية بالأبجدية السريلية ن. زوروبيك. دوشانبيه: نودير، 2003.

دليل قراءة بقلم ياسمين ماماني

لم تتغير أهمية ناصر خسرو ولم يضيع سحر شعره على الرغم من مرور ألف عام على رحيله. ولا يزال شعره مصدر رفعة وإلهام مذكراً إيانا بأننا نحن من نصوغ قدرنا. وكما قال، يمكننا أن نكون كشجرة الحور التي تختار أن تبقى جرداء أو أن ننير دربنا بتعديل الحكمة 'لأننا نستطيع، فقط بالعقل، الإجابة على جميع التساؤلات حول كيف ولماذا، فمن دون العقل نكون كشجرة بلا ثمار'.
سمو الآغا خان¹

مقدمة

كان ناصر خسرو من أشهر شعراء اللغة الفارسية وله مساهمات عظيمة في الفكر الإسلامي. اجتذب اهتمام المعجبين والناقد بما يقرب الألف عام. امتاز بشعره الذي يجمع الفن والفلسفة كما ونال نتاجه الفكري الإعجاب والانتقاد. يظل ناصر خسرو من أهم وأروع الشخصيات في التاريخ والفكر الإسلامي.

يصف ناصر خسرو في كتابه سفرنامه (مذكرات السفر) مدونات شخصية لرحلته التي استغرقت سبع سنوات انطلق فيها من آسيا الوسطى مروراً بساحل البحر المتوسط ومصر وشبه الجزيرة العربية ثم طريق العودة. درس هذا الكتاب لما احتواه من وصف دقيق لمدن ومجتمعات وتقاليد عديدة مر بها وشهدها. تظهر أبيات من شعره في أغلب المجموعات الأدبية والشعرية الفارسية المجمعة منذ وفاته عام 1077م. ويُدرس طلاب المدارس في إيران وطاجكستان حالياً شعره ونثره وتُغنى قصائده من قبل جماعات على امتداد آسيا الوسطى.

إن الصورة الرائعة التي قدمتها أليس هانزبرجر عن حياة ناصر خسرو وكتاباته تعطي نظرة عامة عن هذا الشخص الاستثنائي. تساعد الكاتبة القارئ في فهم حياة وشخصية وخصائص ناصر خسرو من خلال مقتطفات رائعة من كتاباته. الكتاب سهل القراءة ومكتوب بلغة قصصية شيقة تنقل القارئ لماضي ناصر خسرو الغني والذي وصفه بعناية فائقة خلال أسفاره:

إنه الشخص الذي لا يزور القدس فقط وإنما يقيسها ويحدد أبعادها على قدميه خطوة خطوة. والذي لا يراقب الناس في حياتهم اليومية فقط وإنما يستفسر عما يقومون به ولماذا. وهو الذي لا يكتفي بمعرفة التقاليد وإنما يجربها أيضاً. عندما قال له أحد السكان المحليين في القدس أنه يوجد وادي معين قرب القدس يطلق عليه وادي جهنم لأنه يمكن سماع صراخ الناس في جهنم من عتبة الوادي، يذهب ليرى بنفسه ثم يسجل في كتابه: 'ذهبت هناك ولم أسمع شيئاً'. (سفرنامه، 22، ياقوتة بدخشان، 33)

سيجد القراء العامة والمتخصصون في هذا الكتاب كمّاً هائلاً من المعلومات التاريخية عن الدعوة الإسماعيلية في ذروة عصر الخلفاء الأئمة الفاطميين بالإضافة لإعطاء وصف دقيق عن الأماكن والناس والأحداث التي لها صلة بالتاريخ الإسلامي من منظور واسع.

بنية ومحتوى الكتاب

فُسِّمَ الكتاب لإثني عشر جزء تتبع المراحل المختلفة من حياة ناصر خسرو ومحطات أسفاره بالإضافة لإيراد شروحات وتوضيحات عن الفلسفة الإسماعيلية. دُكرت فلسفة ناصر خسرو الأفلاطونية المحدثة² بشكل دقيق في سرد الكاتبة هانز برجر لأسفاره: عندما كان في القدس، كان هناك تحليلات لفلسفته عن الله، وفي القاهرة مناقشات عن فلسفته في العقل، وفي طريق عودته لوطنه يتحدث عن فلسفة الروح.

سيجد القراء مراجعة واسعة لحياته وكتاباتهما بما في ذلك وصف مقتضب عن محتويات كل من كتاباته المحررة ومنها شعره ومذكرات سفره والنصوص الفلسفية. كما وتدقق الكاتبة في السير الذاتية الأكثر أهمية التي كتبت عن ناصر خسرو خلال الألفية الماضية وتبحث في مدى مصداقيتها ومرجعيتها. كما أنها تسرد الأحداث بتسلسل زمني مع خارطة موضحة للمدى الجغرافي لرحلة ناصر خسرو التي استمرت سبع سنوات.

تاريخ ناصر خسرو

يوضح الفصل الأول: 'روح أسمى من الحظ' مراجعة عامة لحياة ناصر خسرو في مراحل أربعة أساسية: النذر اليسير المعروف عن السنين الأولى من حياة ناصر وحتى تحوله دينياً في حوالي عمر الأربعين، رحلة السبع سنوات عندما كتب سفرنامه مع مراجع لشعره، عودته لخراسان كرئيس للدعوة الإسماعيلية في المنطقة، وأخيراً منفاه إلى جبال البامير في بادخشان في مقاطعة يومغان.

تمكن محتويات وفحوى كتابات ناصر خسرو في هذا الفصل (بما يشمل السفرنامه، ديوانه الشعري، كتاباته الفلسفية) من التعرف على شخصيته بشكل أعمق بما يوضح للقارئ الروح والعزيمة التي واجه بها الحياة. وتوضح الكاتبة هانز برجر بشكل رائع تقييم ناصر خسرو العميق للعالم المادي المحيط به ولمقدرات الإنسان على تحسينه، مشيرة أنه:

كان عند ناصر خسرو رغبة أبعد من مفاتن العالم متمثلة برغبته الملحة لمعرفة الأسباب والغايات، للحصول على أجوبة لأسئلة عن مغزى هذا الوجود، لماذا هذا العالم، لماذا سعادة البشر، لماذا تعاسة البشر، لماذا توجد الآلى الجميلة داخل محارة قبيحة المنظر؟ (5)

تقدم هانز برجر للقارئ أمثلة عن براعة ناصر الشعرية وعن دوافعه ونظراته للحياة، كأن يفكر الإنسان بما يحدث له بدلاً من لوم القدر عن حظه العاثر. بمتابعة التحول الجذري في حياة ناصر خسرو عندما قرر أن حياة مدير أو شاعر البلاط سطحية جداً بالنسبة له فإن الكاتبة هانز برجر توضح للقارئ بشكل رائع أن تجارب ترحاله مرتبطة بتطور أعماله وبالعلاقة الوطيدة بين التفكير والفعل في حياته.

يبحث الفصل الثاني 'مهرطق أم ساحر أم ملك' في الأساطير والروايات التي كتبت عن ناصر خسرو من قبل معاصريه وغيرهم. حيث يتعرف القارئ على المصادر الفكرية المتنوعة التي تشير لناصر خسرو وأعماله بالإضافة للصعوبات التي واجهت الباحثين في تجميع الخطوط الفكرية التي تكشف عن شخصيته "الكائن الإنساني الحقيقي الذي عاش وتطور مع الزمن والذي واجه خوف رحلة روحية متعرجة وشاقة والذي كان دافعه لمحبة الحياة إيمانه بأن لكل شيء غاية عليا" (32).

يعالج الفصل الثالث 'أعاجيب هذا العالم' تعليم ناصر خسرو المبكر وحياة البلاط: كان ناصر خسرو وأفراد من أسرته يعملون في خدمة حكومة الغزنويين ومن خلفهم من السلاجقة. يدل هذا على أن ناصر كان ذو ثقافة عالية ليس في آداب وعلوم عصره فقط وإنما أيضاً في العربية والدراسات القرآنية والأحاديث النبوية. تشير الكاتبة هانزبرجر إلى "احتواء شعره ونثره على دلالات وإشارات ضمنية لأيات قرآنية وأحاديث نبوية وشعر عربي" (37). كما وتبحث الكاتبة في ديوانه وقصائده لتوضيح أنواع المواضيع والاستعارات المجازية والبنية الشعرية التي استخدمها ناصر. وهذا المثال يصف أهمية المعرفة وواجب الفرد للوصول إليها.

لا تلم عجلة السماء اللازوردية
بعيداً بهذه التأملات البليسية
اعلم جيداً أن هذه العجلة تنترفع فوق كل الأفعال
فليس الحكيم من يلوم الخير
وطالما استمر العالم بإتباع تقليد تعذيبك
فعليك أن تتعلم عادة إظهار الصبر
أنزل هذا الحمل الثقيل عن ظهرك اليوم
ولا تترك هذه النصيحة حتى الغد
عندما تُخط أنت نجم قدرك السيئ
فلا تنتظر عندها للسماء بحثاً عن نجم محظوظ
(الديوان، 64، ياقوتة بدخشان)

التحول

يركز الفصل التالي 'نقطة التحول' على الصحو الروحية لناصر خسرو وتحوله للتفسير الإسماعيلي للإسلام. يبدأ هذا الفصل بالإبحار بالقارئ بإفتتاحية السفرنامه حيث يراجع ناصر قصة تحوله كاملة بما في ذلك حلم عظيم دفعه لإدراك أن حياته حتى تلك اللحظة لم تكن إلا سباتاً. تعلق هانزبرجر أن "أول صفحتين من كتابه (سفرنامه) تحتوي على أكثر الجمل أهمية في الكتاب كله. فهما مليئتان بالمعاني" (50). همس رجل بثلاث جمل لناصر خسرو في منامه، تحتوي هذه الجمل حسب ما تقوله الكاتبة "بذور كل ما حدث في حياة ناصر بعد ذلك"

أصغ لوضوح حواسك و اسع دائماً لزيادة العقل والحكمة ووجه الآخرين لهذه الحكمة (54).

الترم ناصر بعبرة هذه الكلمات بشكل وثيق خلال رحلته ومكنه ذلك من إحداث تغيير جذري في حياته ومصيره.

تمكن الكاتبة هانزبرجر القارئ من فهم هذه اللحظة الهامة من حياة ناصر خسرو والتفاعل معها وذلك باستخدامها الشعر المليء بالإشارات لتطوره العقلي والروحي وكذلك باستخدام النثر كنقاط دخول. وفيما يلي مقتطفات من شعره تُذكر بغرض توضيح فهم ناصر خسرو الجديد لنفسه وللغاية من الحياة:

أشعر بالنسبة لي أن جسدي هو الأعلى
استنتجت أنه في هذا العالم يجب أن يكون هناك من هو
الأعلى من جميع المخلوقات
كما الصقر أنبل الطيور
أو الجمل بين من دَب على أربع
أو شجرة النخيل بين الأشجار
أو الياقوتة بين الجواهر
فقط القرآن بين الكتب
أو الكعبة بين البيوت
أو القلب بين الأعضاء
الشمس بين أجرام السماء المضيئة (56).

يوضح الفصل الخامس 'العلم والعمل' الأسلوب الذي تبعه ناصر لجعل التغيير الداخلي يظهر بحياته الظاهرة، ومن هذه النقطة تبحث الكاتبة في صميم كتابات ناصر خسرو عن الظاهر والباطن في الإسلام.

وباستخدام أمثلة من كتاباته الفلسفية في وجه الدين فإن القارئ مدعو لتثمين ”أحد أهم الدروس في حياة ناصر المتحولة الجديدة يوضح بها التعبير المجازي:”لاتقدر قيمة كل جوهره وفق جودتها الخارجية وإنما وفقاً لجودتها الداخلية“ (72-73). من هذا التعبير المجازي تستخلص هانز برجر أن ناصر خسرو يرى أن ”كل شيء ظاهر له مواصفات مخفية، وهذه المواصفات لا تشكل فقط خلاصة هذا الشيء وإنما تحمل بالفعل التفسير والمعنى والغاية الحقيقية لهذا الشيء“ (73).

يكتب ناصر موضحاً هذه الفكرة بذكر الثنائيات المتناقضة في العالم المادي:

في كل ثنائية هناك عنصر ظاهر للحواس بينما الآخر مخفي. لكن لا يمكن لأي منهما أن يوجد بدون الآخر. كوجهي العملة حيث يظهر واحد منهما فقط في أي لحظة لكن هذا لا يعني بالضرورة أن الآخر غير موجود (75).

كما ويُطبق التعبير المجازي على الدين:

كلا النصوص الدينية والشريعة ظاهرة. فالقرآن ككتاب الله ظاهر ومحسوس لكل شخص وكذلك الشريعة، قانون الإسلام. لكن معانيهم الباطنية وتأويلهم خفي عن الذين لا يعلمون بينما واضح جلي لمن يعرف. (وجه الدين، 82، ياقوتة بدخشان، 75).

أسفار ناصر

في الفصل السادس ’الرحلة تبدأ‘ وقد إلزم ناصر بالتفسير الإسماعيلي للإسلام، يصبح جاهزاً للبدء برحلة حج لمكة بصحبة أخيه أبو سعيد. يترك ناصر عمله وبيته وأسرته وقد عقد العزيمة على تعلم كل ما يستطيع عن الفلسفة والعلوم التوحيدية الإسماعيلية. يذكر فيما تبقى من هذا الفصل رحلته للقدس التي امتدت لعام واحد مع أوصافه لما صادفه من مدن وناس.

الفصل السابع يوضح للقارئ وصف ناصر لما رأى في مدينة القدس المقدسة: جني الزيتون والتين وغيرها من المحاصيل في المناطق النائية، والتفاصيل الهندسية لتحصينات المدن والحمامات العامة وبرك الوضوء في الجوامع (109).

يزور ناصر العديد من العتبات المقدسة بما في ذلك قبة الصخرة وقيور إبراهيم وزوجته سارة وإبنة اسحق بالإضافة لقبر يعقوب وزوجته وابنهما يوسف. يراقب ناصر المحاصيل والمنتجات الزراعية في المنطقة المحيطة بقبر يوسف والتي تؤمن الطعام لجميع الحجاج:

يعطى كل زائر مؤونة يومية مكونة من رغيف خبز وصحن من العدس المطبوخ بزيت الزيتون والزبيب وقد تم الحفاظ على هذا التقليد منذ أيام النبي إبراهيم وحتى يومنا هذا. يصل عدد الزوار في بعض الأيام لخمسمئة زائر، ويتلقى جميعهم هذا الكرم وحسن الضيافة. (137)

تستخدم الكاتبة هانز برجر مدينة القدس المليئة بالأماكن المقدسة المخصصة للعبادة والتأمل الروحي كإطار لمناقشة الفلسفة المتعلقة بالله عند ناصر خسرو، فبالنسبة لناصر ’إن الله وجوداً حياً حقيقياً‘ وبنفس الوقت ’هويته فوق كل شيء ولا يمكن لشيء أن يرتبط به‘ (الفصل السادس، 34، ياقوتة بدخشان، 114). التناقض الظاهر بين هذين الأسلوبين (واحد يؤكد وجود الله حتى من خلال الأشياء الموجودة في هذا العالم والثاني يؤكد إختلافه الكلي) هو نتيجة درجات تفسير مختلفة بالإضافة لأسلوبين لفهم الله، من خلال مفهوم المتعالي ومفهوم الموجود³. يوجد الدليل على تعالي الله في القرآن الكريم في آيات كالأية التالية:

قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. (القرآن الكريم، السورة 112 والآيات 1-4، ياقوتة بدخشان، 115-116).

تعالي الله كموجود يظهر بمفهوم الرحمة (الرحمن) والعطف (الرحيم) والكرم. يُوضح المفهومين الأولين بالبسملة التي يبدأ بها كل فصل في القرآن الكريم: ’بسم الله الرحمن الرحيم‘ (116). ثم يُؤخذ بالقارئ لمناقشة عن علاقة الإنسانية بالله وفهمها له من خلال العبادة قبل إنهاء الفصل بمناقشة وحدانية الله.

الفصل الثامن: 'عظمة القاهرة الفاطمية'، يقدم للقارئ تفاصيل كثيرة جداً عن حياة البلاط والسياسات والقيادة والحكم والرخاء تحت حكم الخليفة الإمام الفاطمي المستنصر.

تناقش الكاتبة أهمية الخلفاء الأئمة الفاطميين "الذين مثلوا لأتباعهم الذروة الدنيوية لجميع الأمور المادية والروحية" (141) لأنهم حكموا الأمور الدينية والسياسية. وبهذا يكونوا قد رسخوا عقيدة جوهريّة في الإسلام الشيعي. جسد الخليفة الإمام المستنصر هذا المعتقد إذ أنه لم يكن منحدرًا من النبي محمد من خلال ابنته فاطمة وزوجها الإمام علي عليهما السلام فقط وإنما كان أيضاً الوريث الشرعي للقيادة الروحية من الإمام علي وبذلك يكون المؤول الحق للقرآن الكريم. امتدح ناصر الخليفة الإمام في شعره وعكس فيه هذه المفاهيم اللاهوتية:

اعتلى حفيد النبي مكان أجداده بمجد ومهابة
وحتى كوكب زحل وصلت قمة تاجه
المختار هو من اختاره الله
فعن أية حماقة تهذر
فهناك حيث جلس النبي بأمر الله
يجلس سليله بنفس الأمر
(ديوان، 232: 70-2، ياقوتة بدخشان، 141).

أمضى ناصر زماناً في البلاط الفاطمي وكان لعرش إمام الزمان أثر عظيم على إيمانه ومعنى حياته. شعره مليء بالاستعارات المجازية عن مفهوم الإمامة موضحاً بشكل رائع السلطة الروحية للإمام وبروز أهل البيت وتعيين الإمام علي مسؤولاً شرعياً لتفسير القرآن الكريم مؤتمناً على تأويله من الله.

كان نبينا شجرة الحكمة
وكل فرد من عائلته هو شجرة لها نفس الثمار
اليوم، أبناء علي الفاضلين
لهم أبناء، فقط كما كان لابنة النبي أبناء
أولاد علي هم أئمة الحق
شهرتهم النابعة من عظمتهم كشهرة والدهم
نشر أبوهم العدل في كل الأصقاع
ما المثير للغرابة في اتباع الأبناء حكمة آبائهم
(ديوان، 31: 25-7، 32، ياقوتة بدخشان، 142).

الفضائل التي شهدها ناصر في القاهرة الفاطمية في كتابه السفرنامه شملت السلام والحكم الصالح والاستقرار والتي حققها الخلفاء الأئمة على امتداد عهدهم. يدرك ناصر رضا الجيش الذي يعود لنظام جباية الضرائب والاستقرار الاجتماعي. امتدح نظام دفع الرواتب المتصاعد في النظام القضائي والذي وفر الأمان لضعفاء المجتمع وحماهم من الفساد. ويضرب أمثلة أبعد من ذلك عن النجاح الإداري الذي تحقق في عهد الخلفاء الأئمة الفاطميين ومن هذه الأمثلة احترام الفنانين (والذين كانوا يتقاضون أجراً لقاء نتائجهم المهني) والدعم المادي لأعمال الصيانة والموظفين ولأكساء الجوامع (144-49).

يتمتع الناس بأمان منقطع النظير تحت حكم الخلفاء ولا يخاف الناس من وكلاء الخليفة، كما ويعتمد الناس عليه لإحلال العدل وحماية الممتلكات (سفرنامه، 55، ياقوتة بدخشان، 140).

عاش ناصر في القاهرة مدة ثلاث سنوات درس فيها في البلاط مع مفكرين فاطميين آخرين من طوائف دينية متنوعة بما في ذلك الشعراء وعلماء اللاهوت وعلماء النحو والصرف وعلماء القانون وعلماء الفلك. احتضنت القاهرة في القرنين العاشر والحادي عشر أكثر النقاشات الفكرية واللاهوتية حيوية في العالم الإسلامي (155). وفي قلب هذا الإطار الفكري تأخذ الكاتبة هانز برجر القارئ لعمق نظرية الخلق عند ناصر، موضحة خصائص مفهوم العقل الذي هو معتقد هام آخر في التفسير الإسماعيلي للإسلام.

يوضح الفصل التاسع تفاصيل أماكن وشعائر الحج. حالف ناصر الحظ بأداء الحج ثلاث مرات إلى مكة بخدمة الخليفة الإمام الفاطمي، وكانت الرحلة الثالثة الرحلة الوحيدة التي شرح تفاصيلها كاملة والتي كانت عندها بداية

عودته لبلده الأصلي. تسرد الكاتبة هانزبرجر بخبرة ملاحظات ناصر في رحلته من القاهرة للمدينة المقدسة بما يشمل المكان البارز والمحصن في أسوان، الأخطار في طريق رحلة الحج، المراكز الجمركية للسفن وللعبور

لشبه الجزيرة العربية (180-84). هناك تفاصيل رائعة لوصف ناصر للكعبة وتوجهها ومكانها ضمن المسجد الحرام وحجم وتفاصيل الباب الثنائي المصنوع من خشب الساج والذي احتوى كتابات منقوشة بالذهب والفضة والدرج الخشبي الذي 'يتسع لعشر رجال في صف واحد' والزخرفات الغنية للباس الكعبة التي تشكلت من ثوب أبيض⁴ مزين بأشرطة ومرصعات ذهبية (186).

تشير هانزبرجر إلى أنه على الرغم من اهتمام ناصر بكل هذه التفاصيل لمكان وشعائر الحج إلا أن الحج الجسدي لا يحمل أي قيمة إذا لم يفهم الحاج معنى ما يقوم به. 'يُعلم ناصر الحاجة للظاهر والباطن بالإيمان الحقيقي يتطلب الفهم والالتزام بالوجهين الظاهري والباطني' (188). يكرس ناصر فصلاً كاملاً بعنوان 'وجه الدين' ليشرح المعنى الباطني للحج. تسرد هانزبرجر مقتطفات من هذا الفصل لمناقشة المقارنات التي وضعها ناصر خسرو بين الظاهر بما يشمل من الفعل المادي للحج للكعبة وبين الباطن بما يشمل من الرحلة الروحية للمريد الإسماعيلي لمعرفة الإمام (189).

وكما يتطلب السفر الجسدي للوصول للكعبة تحمل الكثير من الأعباء والمخاطر فإن المقابل الروحي لذلك يشمل الحاجة للعلم والمعرفة والتي يتم نقلها من خلال أشخاص الحجة والداعي، كما هي الحال في العديد من الطرق الصوفية والباطنية. ترمز المحطات على الطريق إلى مكة لمحطات المعرفة التي يصلها الفرد بسعيه وكسبه للمعرفة. في كل مرحلة يترك الحاج محطة لينتقل للأخرى فإن ذلك يرمز لرفضه للإيمان المزيف وسعيه المستمر للوصول للحقيقة. كانت الوجهة النهائية عند ناصر 'إمام الزمان والذي يمثل بيت معرفة الله'. وهكذا نرى أنه في حين أن الكعبة هي الغاية الجسدية لكل المسلمين فإن الإمام وعلمه يمثلان في الحقيقة الغاية الروحية عند المسلمين الإسماعيليين (190).

عودة ناصر إلى إيران

يبدأ الفصل العاشر بـ 'العودة للوطن' إيران. مرَّ ناصر وأخوه بتغير جذري في حياتهما، فمن الثراء في البلاط الفاطمي وحتى الفقر المدقع بعد عدة شهور من مغادرة مكة. واجها تأخيرات طويلة بانتظار رجال القبائل العربية المحلية لمنحهما ممرًا عبر الجزء التالي من رحلتها. مكثا طويلاً في البصرة في طريقيهما شمالاً حيث كانت البصرة مكاناً شيعياً مميزاً للتقوى والورع والتعلم ولقد زار ناصر كل المقامات الثلاث عشرة في المدينة والمخصصة للإمام علي.

كانت التغيرات المادية والمناظر التي صادفها ناصر في رحلة العودة متلازمة مع رحلة روحية عظيمة مشابهة. وعند هذه النقطة تقدم الكاتبة هانزبرجر مناقشات عن فلسفة الروح عند ناصر والتي وُجدت في أعماله الفلسفية كما في عمله 'الفصل السادس'.

يؤمن ناصر بأن في داخل كل إنسان نفس فردية (نفس جزئية) والتي توجه حياة الإنسان. وبالنسبة له فإن النفس، وليس العقل، هي من تقرر البحث عن العلم والتي توجه كلاً من العقل والحواس لتختار بين الخير والشر (212).

يوضح هذا المفهوم أيضاً في شعر ناصر حيث أن النفس هي القوة الربانية وراء أفعال الإنسان وعقل الإنسان هو الذي يوفر المشورة:

روحك هي سلطان جسدك

وعقلك هو الكاتب

ونكاؤك هو الوزير

(ديوان، 91: 15، ياقوتة بدخشان، 214)

يوضح هذا التعبير المجازي الجميل أن عقل الإنسان يوفر الآلية للنفس الفردية لتجد طريقها وتبحر بين العالم العقلي والعالم المادي لتتمكن من الوصول للكمال (فالنفس أضحت غير كاملة عندما افتترقت عن الله). يوضح هذا المثال قناعة ناصر (كما وصفت في الفصل الخامس في الأعلى) بأنه علينا أن نجتهد لنجعل التغيير الداخلي فينا يظهر في حياتنا الظاهرة.

الفصل الحادي عشر، 'العالم يُظلم'، يشكل المرحلة الثالثة من حياة ناصر خسرو عندما يعود لوطنه في خراسان ليقيم بدور الداعي الرئيسي للإسماعيليين في المنطقة وكان "لزماً إشراك الآخرين بالمعرفة إذا لم تكن لديهم هذه المعرفة" (221). هذا الدافع الكبير والحس بالمسؤولية تجاه إشراك الآخرين بالعلم هو انعكاس للبنية الهرمية

للدعوة الإسماعيلية الفاطمية حيث تنشر التعاليم نزولاً من المرتبة الأعلى (النبي والإمام) وحتى المراتب الدنيا (الدعاة⁵ والحجج⁶ والوعاظ..... الخ).

تشير الكاتبة هانزبرجر إلى النتائج التاريخية الهامة لدور ناصر خسرو في التعليم والوعظ الديني في وقتنا هذا، دفعت هذه التعاليم الكثير من الناس للتحويل للتفسير الإسماعيلي للإسلام، هذا ويعيش أحفاد الكثيرين من هؤلاء فيما يسمى حالياً بطاجكستان وشمال أفغانستان والباكستان⁷ وهم يفخرون بأن أجدادهم والمنطقة بأسرها تحولت على يد ناصر خسرو" (222). لقد وضعت نشاطاته في التعليم الديني حياته في خطر إذ أن الخليفة العباسي السني الحاكم كان في بغداد المجاورة ولذلك فقد أجبر ناصر على الفرار من بيته ولجأ لجبال البامير في بدخشان في مقاطعة يومجان حيث قضى بقية حياته.

مر بالهواء العذب بخراسان
لمسجون في أعماق وادي يومجان
والذي يتجمع جسده في حيز ضيق مزعج
سرقته منه كل ثروته، كل الأشياء الجميلة
كل الأمل
(ديوان، 208: 1-2، ياقوتة بدخشان، 9)

توضح هانزبرجر التحديات والخسارات التي تعرض لها هذا الشاعر الفيلسوف الخارق والتي واجهته في أوقات الضيق والإمتعاض الشديدين من منفاه وضياح شبابه. وتوضح الكاتبة أن "قدراته الفنية حولت هذه المشاعر للوحات شعرية بديعة":

عُرب المنفى
لسع قلبي ولذلك
ستقول أن السماء خلقت
العذاب فقط من أجلي
(ديوان، 6: 1، ياقوتة بدخشان، 228)

في هذا الفصل الثاني عشر والأخير، 'عودة المجد'، نرى أنه رغم الروح المتألّمة التي كتب بها ناصر أحياناً إلا أنه استطاع أن يحافظ على صبره ويوضح ثقته بالهدف الإلهي من هذا: "وكما تسير عجلة السماء المليئة بالنجوم والكواكب بقواعد محددة فإن ذلك ينطبق على البشر أيضاً" (241). تصف هانزبرجر أربعة أمور أو أسس اتبعها ناصر ليحافظ على إيمانه عندما كان في المنفى، الأسس التي مكنت ناصر من "اكتساب إيمانه بالله والنبي محمد وسلالته من الأئمة الإسماعيليين، وبهذا الإيمان يجد ناصر طريقاً للعيش بحكمة في هذا العالم" (242).

الأمر الأول هو طبيعة تسلسل الأمور وفهم العالم كثنائيات من ظاهر وباطن بحيث يوجدان سوية ولا يمكن العمل بغياب أي منهما: "المادي والذي يستخدم في خدمة الروحي"⁸ (243). الأمر الثاني هو النظر للإنسانية بأسرها بتفاؤل وثقة بأن المحتوى الداخلي في النهاية جيد وبالنسبة لناصر فإن الجانب الروحي هو المهم عند الآخرين (245). تظهر هذه الأفكار بشكل متكرر في شعر ناصر مع دلالات وإشارات 'للجوهرية في الداخل'.

العالم محيط عميق
مياهه الزمن
جسدك كصدفة
وروحك كلؤلؤة
إذا أردت أن يكون لك قيمة كلؤلؤة
فعليك إعلاء شأن لؤلؤة نفسك بالتعلم
(ديوان، 145: 47-48، ياقوتة بدخشان، 245).

الأمر الثالث الذي عمل به ناصر هو ثقته العميقة بأن إيمانه صحيح: إن هناك الكثير الذي يتوجب فهمه بالمقارنة لما يظهر في الوجه الظاهر للطبيعة والدين، وبأن هذه المعرفة المخفية قد أعطيت للنبي محمد والإمام علي (248). الأمر الرابع الذي ساعد ناصر هو اللجوء لإنجازاته العظيمة حيث كان يجد المواساة فيها في خضم منفاه فناصر ينظر لهذه الإنجازات على أنها تحقيق لغايته في الحياة: من خلال مواعظه وكتاباتاته فإنه "يتحدى نفسه ويتحدى الآخرين ليجتثوا عن الحقيقة ويرفضوا الحلول السهلة" (250). يوضح ناصر في المقطع الشعري

التالي هذه الفكرة جيداً مشيراً إلى مسؤولية كل فرد عن قيامه ببحثه الخاص حيث أن الله قد وفر كل شيء مطلوب من أجل هذا البحث:

على الرغم أن الله قد خلق الأم

والثدي والحليب
لكن على الطفل أن يمتص الحليب بنفسه
(ديوان، 25: 22، ياقوتة بدخشان، صفحة 251).

وبهذه الفكرة فإن الفصل الأخير يعود بنا في دائرة كاملة لخطاب سمو الآغا خان الذي بدأنا به دليل القراءة هذا، إذ يقول: الإرادة والإنفاق هما مسؤولية الأفراد لحمل 'قنديل الحكمة' لإنارة طريقهم والبحث عن معنى وجودهم. أولئك الذين يركنون للراحة والإمتناع عن البحث وتناسي الإشارات من حولهم لن يجدوا المكافأة أو الثمار التي تغذي الروح وسيكون مصيرهم 'كأشجار بلا ثمار'.

الخاتمة

ولقد استخلصت أنني
لم أنل السعادة
حتى غيرت كل طريقي
(سفرنامه، 2، ياقوتة بدخشان، 49)

تجلب الكاتبة هانزبرجر شخصية وروح ناصر خسرو للحياة. في كتابها بكل وعده من العنوان: 'لوحة شاعر ورحالة وفيلسوف فارسي'. تمكن طريقتها السردية القارئ من رؤية حركة كل ما مر به ناصر وما رآه بالإضافة لفهم عجائب الأماكن التي زارها بغناها التاريخي والثقافي.

نرى على امتداد الكتاب التطور والتحول في هذه الشخصية الخارقة والتي لم 'تغير طريقها' فقط وإنما الطريقة التي فهمت من خلالها جماعات عديدة عقيدتها وعبرت عنها خلال ألف سنة. حث ناصر المؤمنين بأن يعبروا عن معتقداتهم بكل أوجه الحياة.

سواء بأفعال خاصة أو صلوات شخصية أو بالتعبير الخارجي عن العقيدة كالحج فإن ناصر يؤكد بأنه يتوجب على المؤمن أن ينظر عميقاً في نفسه لسبر أغوار المعاني الباطنية لهذه الأفعال (ياقوتة بدخشان، 223).

لقد حافظت الجماعات الموجودة في طاجكستان وأفغانستان وإيران والصين والباكستان في يومنا هذا على تراث ثقافي وموسيقي⁹ غني مليء بالشعر والموسيقى والرقص والتي يعود الفضل فيها لتعاليم ناصر. ركزت تعاليم ناصر على فهم العلاقة بين العالمين المادي والروحي، رسالة الله التي أرسلها عن طريق نبيه محمد وبين المعنى الباطني لهذه الرسالة والتي توجد لدى إمام الزمان (223).

تشكل أعمال ناصر خسرو مساهمة هامة للأدب الإسلامي في بلاد فارس ولغة الفارسية بشكل خاص. في العصر الذي عاش فيه ناصر خسرو كانت اللغة العربية الوسيلة الرئيسية لتناقل العلوم الفكرية والفلسفية وكانت كتاباته من أوائل الكتابات الفارسية عن الفلسفة ممهدة الطريق لها لتصبح اللغة الحيوية للناس في آسيا الوسطى وإيران.

سجد قراء كتاب: 'ناصر خسرو، ياقوتة بدخشان: لوحة شاعر ورخالة وفيلسوف فارسي' دراسة شيقة عن الإسلام في عصره الذهبي: البيئة المزدهرة للخلفاء الفاطميين الأئمة وفلسفتهم وعقائدهم وإدارتهم. كما أن مناقشات الكاتبة هانزبرجر وبحثها في شعر ناصر وفلسفته توفر إطاراً هاماً لفهم أعمق للتاريخ والعقيدة

الإسماعيلية. يشكل هذا الكتاب مقدمة مثالية لأي فرد له اهتمام بدراسة مفصلة عن أعمال ناصر خسرو وفي البحث في العصر الفاطمي للتاريخ الإسماعيلي.

الملاحظات والمراجع

1. خطاب في الإحتفال بمناسبة وضع حجر الأساس للمركز الإسماعيلي في دوشنبه، دوشنبه، طاجكستان، 30 آب 2003.

2. الإسم الحديث للمدرسة الفلسفية التي تشكلت في القرن الثالث الميلادي، مبنية على تعاليم أفلاطون وأفلاطونيين آخرين. لم يعتبر الأفلاطونيون الحديثون أنفسهم مختلفين عن الأفلاطونيين التقليديين، لكن اعتبر تفسيرهم لأفلاطون مختلفاً بشكل كبير عن تعاليم وكتابات أفلاطون نفسه مما توجب التفريق بينهم. كانت الأفلاطونية الحديثة موجودة أيضاً عند مفكري العصور الوسطى المسلمين واليهود بمن في ذلك الفارابي وابن ميمون، كما حصل لها إعادة إحياء في عصر النهضة لدى الحصول على كتب إغريقية وعربية عن الأفلاطونية الحديثة.

3. التعالي، الحالة التي يكون فيها الشيء بعيداً لا يمكن الوصول إليه وبعيد عن الفهم والتعرف عليه. عكسها هو الوجود. فالفهم متعالي عن الخلق الذي خلقه. الله الذي يستدل عليه من خلال العالم المحسوس أو أجزاء منه هو موجود. إقرأ أيضاً: أنتوني (لورد) كوينتون، "الرفعة"، في قاموس فونتانا الجديد للفكر المعاصر. لندن، 2000، صفحة 881.

4. تغير لون غطاء الكعبة عبر الزمن: خلال فترة الحكم العباسي كان أسود اللون (وهو كذلك اليوم)، وتحت الحكم الفاطمي أصبح الغطاء بلونهم الرسمي الأبيض (ياقوتة بدخشان، 148).

5. الداعي هو مصطلح يطلق على المبشر الديني بين الجماعات المسلمة المتنوعة والذي يدعو الآخرين للإسلام. وفي التقليد الشيعي فإن هذه الدعوة هي لجذب الآخرين للإيمان بالإمامة. استخدم كمصطلح بين الإسماعيليين قبل وأثناء حكم الفاطميين وفترة الموت في التاريخ الإسماعيلي (انظر مصطلح داعي في قاموس الكلمات في موقع معهد الدراسات الإسماعيلية www.iis.ac.uk).

6. المصطلح القرآني يعني الإثبات وتقديم الإثبات. في الإسلام الشيعي فإن المصطلح يشير إلى الأنبياء والأئمة كأدلة على وجود الله على الأرض. استخدم هذا المصطلح أيضاً في الفترة الفاطمية وما قبل الفاطمية للدعاة الكبار وفي مرحلة الموت من التاريخ الإسماعيلي استخدم المصطلح للإشارة لمن يمثل الإمام (انظر مصطلح داعي في قاموس الكلمات في موقع معهد الدراسات الإسماعيلية www.iis.ac.uk).

7. استقر أبناء من هذه الجماعات في مناطق أخرى من العالم بما في ذلك أوروبا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية.

8. يتحدث ناصر خسرو عن دلائل في العالم المادي تقود الفرد في بحثه وفي رحلته (ياقوتة بدخشان، 243). تذكرنا هذه بآيات من القرآن الكريم (30: 20-25) والتي تتحدث عن إشارات أعطاه الله للبشر: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَانِغُ" "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ" (30: 22).

9. ساهمت الجهود المعاصرة بتمكين أطراف أوسع من التعرف على التراث الفني والثقافة الغنية لهذه المنطقة. من هذه الجهود نذكر (تعايير البامير) ومبادرة الأغا خان الموسيقية في آسيا الوسطى، إضافة للمعارض والعروض الموسيقية. توفر هذه الجهود المعاصرة فرصة هامة للوصول لرؤية أعمق للإلهام الذي يحفظ ويدعم الإيمان عند الجماعات في منطقة البامير الجبلية.

إقتراحات لقراءات أخرى

موسيقى وشعر من جبال البامير، المكتبة الإلكترونية للوسائط المتعددة في موقع معهد الدراسات الإسماعيلية (انظر www.iis.ac.uk).

إي. برتلز "ناصر خسرو" في موسوعة الإسلام، (الإصدار الأول) المجلد السادس، الصفحات 869 حتى 870.

أليس هانزبرجر. "ناصر خسرو: علامة فاطمي" في كتاب: التقاليد الفكرية في الإسلام، تحرير فرهاد دفتري. لندن، 2000، الصفحات 112 حتى 129.

عظيم نانجي. "ناصر خسرو" موسوعة الإسلام، (الإصدار الثاني) المجلد السابع، الصفحات 1006 حتى 1007.

سار فاروز نايبوزوف. "تطور التراث الشيعي الإسماعيلي في آسيا الوسطى" في مجلة الإسماعيلي في المملكة المتحدة. لندن، آذار 2002 (انظر أيضاً www.iis.ac.uk).

أنماري شيميل. اصنع درعاً من الحكمة: أشعار مختارة من ديوان ناصر خسرو. لندن، 1993، أعيدت طباعته عام 2001.

بول ووكر و ولفرد مادلنغ. تقدم الفاطميين: شهادة شيعية معاصرة. لندن، 2000.